الأدب العربي الحديث
في مصر الجنوبية
للدكتور زكي مبارك

كان من توفيق الله — تباركتْ أسماؤه ! — أن ألتفت إلى الأدب العربي في السودان ، فقد تلقيت وتلقّى الأستاذ الزيات رسائل كثيرة تشهد بأن ذلك الالتفات صادفَ هوًى في أفئدة أهل الغيرة على الأدب في ذلك القُطر الشقيق

ومن الحديث المعاد أن أقول : إن المصريين والسودانيين إخوة ، ولكن يجب أن نعترف صراحةً بأننا فرّطنا في حق تلك الأُخوّة ، فلم نؤدِّ لها كل ما يجب من التعهد والرعاية ، ولم نبذل في سبيل إعزازها جهداً يستحق التسجيل

ويزيد في الأسف على ما وقع من التفريط أن البرّ بأشقّائنا في مصر الجنوبيـة لم يكن يكلفنا عَنَتاً لو أردناه ، فالسودان قريب ، وجوّه مقبول في أكثر الفصول ، والاتصال بأهله يفتح أمام قلوبنا آفاقاً جديدة من المعاني الأدبية والروحية ، لأنهم يغارون على العروبة غيرةً لا يعرف صدقها إلا من عرف بعض رجالهم الأمجاد ، ولأنهم حفظوا عهد الإسلام في أوقات قلّ فيها المؤمن الصادق والمرشد الأمين

ومن المؤكد أن السودان قادرٌ على المشاركة الجدية في إحياء الأدب العربي ، فلأهله الأماجد ماضٍ مجيد في خدمة اللغة العربية وإن جهله الأكثرون ، ولشبانه في هذا العهد مطامح وآمال ، وقد يقدرون بعد قليل على الظفر بمنازل أدبية يصل صداها إلى جميع الأسماع بالبلاد العربية

في السودان تطلّع شديد إلى الاستفادة من تقدّم العلوم والآداب في العصر الحديث ، ولهذا التطلع سندٌ مما ورث أهله من معارف العرب القدماء . وإن دام هذا الحال وسيدوم ، فلن يمضي إلا زمن قليل حتى يصبح للخرطوم وأم درمان مكانٌ بين المواصم التي تحمل مشاعل الثقافة العربية من أمثال : القاهرة والقدس ودمشق وبيروت وبغداد ...

أغلب أهل السودان من أرومة عربية ، فغيرتهم على العروبة غيرة طبيعية . يضاف إلى ذلك مُقامهم في بقاع توصف عند القصد في الوصف بأنها الشؤون التي تذرف ماء النيل ، وهو أكوابٌ من التِّبر المُذاب

كان من الخطأ البيّن أن نترك أمر التفكير في السودان لرجال السياسة ، وهم قومٌ لا يلتفتون — حين يلتفتون ! — لغير الاتفاقات والمعاهدات ، ولا يذكرون إلا أن السودان جزءٌ من مصر تمرّض لمصاعب قد تزول بعد زمن قصير أو طويل .

والأمة التي تعتمد على ساستها في « جميع » الشؤون ، غير جديرة بشيرف الاستقلال

يجب على رجال الأدب أن يعرفوا واجبهم نحو السودان ، السودان العربي ، بغض النظر عن صفته المصرية ، فمن التقصير الذميم أن ننسى أن السودان من موائل العروبة ، حين نتحدث عن : المغرب واليمن والحجاز وفلسطين وسورية ولبنان والعراق

والعتْب الذي أوجهه إلى أدباء مصر ، أوجهه إلى إخوانهم بسائر الأقطار العربية ، فقد كان يجب على إخواننا في الشرق العربي أن يذكروا إخوانهم في السودان ، فما خلا رأس أديب بمصر الجنوبية من شواغل نبيلة تصل عقله وروحه بأقباس العروبة في هذا الزمان ، وإن لمتْ من أفق سحيق كالأفق الذي تشعّ منه بوارق العروبة بين المهاجرين في أمريكا الجنوبية

أليس من العقوق أن يجهل بعض أبناء العرب أخبار السودان ، مع أن السودان يعرف من أخبارهم كل شيء ؟

لمصر فرصة من فرص الجاذبية ، وهي مكانتها العلمية ، وللحجاز فرصة أعظم ، لأنه وطن الحرمين الشريفين ، والشام معهد ملك بني أمية ، والعراق معهد ملك بني العباس ، فماذا بقي للسودان حتى يهتمّ به العرب والمسلمون ؟

بقي للسودان حق شريف نبيل : هو تفرده بالصدق الأصيل ؛ فما تعب العرب ولا تعب المسلمون في توطيد سلطانهم الأدبي والروحي في البلاد التي ينبع فيها النيل ، وإنما صدق السودان للعروبة والإسلام بلا دعوة ولا دعاة كأنه أبى أن يتلقى وحي الهداية عن أحد من الوسطاء

السودان العربي حصن حصين ، والسودان المسلم كنزٌ ثمين ، ولو صدق جميع العرب والمسلمين كما صدق السودان لخفّت بليتنا

بالخوارج على العروبة والإسلام فى بلاد لم يحفظ فيها مجد الآباء غير أفراد لا يزيدون عن مئة مليون ، مع أن هَدْى العروبة والإسلام كان وصل إلى مئات الملايين

قيل إن أهل السودان وصل عددهم إلى ثمانية ملايين من النفوس ، وأقول إنه ثبت عندى أن أهل السودان وصل عددهم إلى ثمانية ملايين من القلوب ، فما فى عرب السودان رجل بدون قلب ، ولا جاز عند أهل السودان أن يكون الصديق مَلَكا فى الحضر وشيطاناً فى المغيب ، وإنما السودانى عدو أو صديق ، لأنه يكره الختل والخداع ، إلا أن يكون دخيلاً فى الانتساب إلى تلك البلاد !

نصحنى أحد الاصدقاء بأن أحافظ على الصلوات حين أزور السودان ، لأن أهله لا يحترمون غير من يحافظ على الصلوات

فمتى أزور السودان لأعرف المدلول لكلمة الفجر وكلمة الشفق ؟

كان أبى رحمه الله يوقظنى من النوم لأؤدى صلاة الصبح قبل الشروق ، وقد مات أبى ، مع الأسف الموجع ، ولم يبق لى صديق يذكرنى بأوقات الصلوات

فما أسعد المصرى المقيم بالسودان ، لأن الجو هناك يقهره على مراعاة النوافل قبل أن يقهره على مراعاة الفرائض !

السودان السودان ، السودان المسلم ، السودان العربى ، السودان المصرى ، وتلك أواصر لا ينكرها إلا جحودٌ أو جهولٌ

إن الذين غلبونا باسم السياسة لا يستطيعون أن يغلبونا باسم الوجدان ، فمتى نعرف قيمة ما خصصنا به من القدرة على الظفر بثقة الأرواح والقلوب ؟

مصر غنية بالعواطف ، ولكنها لا تعرف كيف تنتفع بذلك الغنى الجميل

مصر التى عذّبت زعماءها وهى تذكّرهم بواجبهم نحو السودان لم تقهر واحداً منهم على زيارة السودان

أليس من العيب أن يشهد التاريخ أن السودان لم يزره مصطفى كامل ولا سعد زغلول ؟

إن الشيخ محمد عبده زار السودان وهو موقوذٌ بمرض السرطان ، فكانت تلك الزيارة آية على أنه يعرف معنى الاستشهاد فى سبيل الوطن الغالى ، ومحمد عبده هو محمد عبده ، فمتى يجود بمثله الزمان ؟!

أنا أرجو أدباء مصر أن ينسوا الجدل السياسى حول مركز مصر فى السودان بعد أن انتهت الأمور إلى ما انتهت إليه ، وبعد أن صح أن الهجرة إلى السودان لا تستهوى ألباب المصريين لأن مصر تشدهم إلى ثراها الخصيب بقيود مجدولة من وشائج الخيرات والثمرات ، وهم لهذا السبب أزهد الأمم فى الانتقال من مكان إلى مكان

كل ما أرجوه من الأدباء والفنانين أن يذكروا أن بلادنا تنقسم إلى شطرين : مصر الشمالية ومصر الجنوبية ، فإن فهموا هذا فقد يصبح من واجبهم أن يصطافوا فى الخرطوم كما يصطافون فى الأسكندرية . ولم يخبرنى الأستاذ عبد العزيز عبد المجيد بجديد حين تلطّف فكتب إلىّ يقول : إن جوّ السودان فى يوليه وأغسطس وسبتمبر لا يعرف ما سميتُه « وقدة الصيف » : لم يخبرنى هذا الصديق بجديد فقد كنت أتابع ما ينشر المذياع من درجات الحرارة فى الصيف وكان يسرنى أن أعرف أن الحرارة فى الخرطوم أقل من الحرارة فى الأسكندرية بنحو عشر درجات

فما تفسير ذلك ؟

تفسيره سهل ، فالصيف فى السودان هو موسم الأمطار ، الأمطار التى تعيش بفضلها مصر الشمالية منذ الأبد الأبيد ، فأين الشاعر الذى تهزه هذه المعانى فيعيش موسماً أو موسمين فى ضيافة الأمطار بالسودان ليعرف أن المصريين القدماء لم يسموا النيل « حابى » إلا وهم يدركون أنه حباهم بالخيرات والبركات ، بفضل ما ينقل إليهم من أمطار السودان . والحابى هو الوهاب ، وذلك حرف نقله المصريون عن العرب ، أو نقله العرب عن المصريين .

أين الشاعر الذى تهزه هذه المعانى فيزهد مرة واحدة فى تعقّب أسراب الملاح فى الشواطىء المصرية أيام الصيف ليرى بعينيه كيف تتقتل الأمطار فى أعالى مصر الجنوبية ليكون من حظنا أن نجد الفرص الملائمة الأمواج فى أسوان والأقصر وأسيوط والقاهرة والمنصورة ودمياط ؟

إن مصر الشمالية فتنت أبناءها أعظم الفتون ، فلم يعرفوا

أن الرواضع مدينة للروافد ، وقد يكون فيهم من يجهل الفرق بين الروافد والرواضع[١]

فمتى نصبر على هذه البلادة الذميمة ، البلادة التى قضت بأن نجهل كل شيء من الجوانب الروحية والأدبية فى السودان ، وبحياضه وأرباضه قبائل صحيحة النسب إلى يَعرُب وقحطان ؟

كتب الأستاذ الهادى إلى مجلة الرسالة كلمة تحدث فيها عن زعماء السودان ، فمن أولئك الزعماء ؟ لم أعرف منهم غير اسمين اثنين ، مع أنى أعرف مئات الأسماء من أهل الفضل فى مختلف البلاد العربية والإسلامية ، فكيف جاز أن أطوَّق بهذا الغُلّ ، وأنا أعرف أن أقبح الأغلال هو غُلّ الجهل ؟

وهل تفردتُ بالجهل حتى أسوق إلى نفسى هذا الملام العنيف ؟

لقد شاركنى فى هذا الجهل جماعة من الفنانين الفضلاء ، ألم تشهدوا بأعينكم أفلاماً مصرية أخذت مناظرها من البلاد السورية واللبنانية والعراقية ولم يؤخذ منها منظر واحد من مناظر مصر الجنوبية ؟

إن أردتَ التعرف إلى مناظر السودان عن طريق السينما — أو الخيّالة كما يسميها بعض أساتذة اللغة العربية — فاطلب مشاهدة بعض الأفلام الإنجليزية أو الأمريكية ، ولا تنتظر الأفلام المصرية ، لأن الفنانين فى مصر لم يعرفوا أن فى الدنيا بلاداً غنية بالمناظر الطبيعية مثل السودان وهو الجزء الجنوبى من الوطن الغالى

ومع هذا يقال : إن المصريين يقدّمون دروس الوطنية إلى شعوب الشرق !

قد يجيب بعض الفنانين بأن مناظر السودان ممزوجة بسكان السودان وفيهم أقوام لهم أشكال وأزياء ينكرها الذوق الحديث (!!)

وأقول إن الجمال الحق هو جمال النفوس والقلوب ، لا جمال الأشكال والأزياء ، فالبدوىّ الممزّق الثياب قد يكون أكرم نفساً وأطهر سريرة من الحضرى الأنيق

ولسنا أطفالاً حتى ننخدع بالظواهر الكواذب ، وإنما نحن طلاب حقائق ، وطالب الحقيقة يعلم كل العلم أنها غانية عن التزيين والتلوين ، فمن ظن أنه يؤذينا أو يؤذى تلك البلاد بنقل ما فيها من صور تمثل بعض من يعيشون هنالك على الأساليب الطبيعية فهو جاهل بالقيم الصحيحة لحيوات الشعوب ، وهى حيوات تتأثر بظروف المكان إلى أبعد الحدود

وبأى حق نطالب أهل السودان بأن يُستعبَدوا كما استعبِدنا للأزياء الأوربية ؟ وبأى حق يجوز لبعض الموظفين فى السودان أن يدخلوا مكاتبهم فى ملابس لا ترى الصيف والشتاء إلا بعيون الأوربيين ؟

وهل ظفر الأوربيون بالسلامة من سواد قلوبهم حتى نحاكيهم فى جميع الشئون ؟

أوربا هلكتْ بسبب التصنع ، فلنرحم أنفسنا من مهالك التصنع ، ولنتذكر أن نجاحنا فى ماضينا يرجع إلى فضيلة الاحتكام إلى العقل فى جميع الأمور ، وهى فضيلة حفظت وجودنا سليما على اختلاف الأجيال

أما بعد فأين أنا مما أريد ؟

أنا ماضٍ فى نظم سلسلة من الأبحاث عن الأدب الحديث فى السودان ، ولكن السودان يصدّنى عما أريد ؟ فكيف وقع ذلك ؟

هنا يظهر نضج العقل فى تلك البلاد ، فما كاد يصل مقالى بالرسالة إلى مدينة الخرطوم حتى سارعت إحدى الجماعات الأدبية هنالك فأرسلتْ إلىّ برقية ترجونى فيها إرجاء الحكم على أدب أهل السودان إلى أن أزور السودان . وكذلك صنع الأستاذ عبد العزيز عبد المجيد ، فقد كتب إلىّ خطاباً قال فيه : إن أدباء أهل السودان مع ارتياحهم للحديث عنهم يرجون أن أؤجل هذا الحديث إلى أن أزور السودان

فهل تعرفون السرّ فى هذين الاقتراحين ؟

يظهر السرّ جلياً حين تعرفون أنى لم أتأهب لإنشاء بضع مقالات للتعريف بالأدب الحديث فى العراق تيسيراً لمهمة المدرسين الذين سيتقدمون لمسابقة الترقية للتعليم الثانوى إلا بعد أن كتبت لسعادة مدير التربية والتدريس فى بغداد خطاباً أرجوه فيه

(١) الروافد هى النهيرات التى تمد النهر بالماء ، والرواضع هى النهيرات التى تحيا بفضل ما تنقل عن النهر من الماء

أن يتفضل فيحدد المعالم الواضحة لأدب أهل العراق ، خوفاً من أن يشط قلمي فيخوض في أحاديث ينكرها أهل العراق

فإذا جاز أن أتحفظ في الحكم على الأدب العراقي بعد أن زرت جميع الحواضر العراقية ، وبعد أن تعرفت إلى جمهرة أهل الأدب هنالك ، فكيف لا أتحفظ في الحديث عن أدب أهل السودان وأنا لم أزر تلك البلاد ؟

الحق أن هذين الاقتراحين على جانب عظيم من السداد ، وبهما يظهر أنه لا بدّ من تأجيل الحديث عن أدب أهل السودان إلى أن أتشرف بزيارة ذلك القطر الشقيق ؟ ولكن متى ! سيكون ذلك بإذن الله في شهر أيلول ، وهو موسم طغيان النيل ، فعندئذ أزور السودان بصحبة صديق يحبه السودانيون وهو الأستاذ الزيات ؛ ثم أكتب عن الجوانب الأدبية ، ويكتب هو عن الجوانب الاجتماعية ، وبهذا يمكن تسجيل صور صحيحة عن السودان ينتفع بها المتشوفون لأخباره من أبناء الأمم العربية

ثم ماذا ؟ ثم أقول : إني علمت أن جريدة « صوت السودان » أخذت تُصدر أعداداً خاصة في التعريف بأدباء مصر الجنوبية تمهيداً لتحقيق المشروع الذي فكرتُ فيه ، فأرجو أن يتفضل الإخوان هناك بإرسال تلك الأعداد باسم : « زكي مبارك بمصر الجديدة » لأستطيع متابعة هذه الدراسات الأدبية ، ثم أقول أيضاً : إني أرجو أن يتفضل أحد أدباء « السودان » فيرشدني إلى ما صدر عندهم من المطبوعات الحديثة مع النص على المكاتب التي تبيعها لأقتني منها ما يساعد على فهم هذا الموضوع الجليل .

والمهمّ هو أن نكون رجال أعمال ، لا رجال أقوال ، فلن يكون الوعد بزيارة « السودان » زُخرُفاً من القول نلاطف به إخواننا في ذلك القطر الشقيق ، وإنما يجب أن يكون من نياتنا الصوادق أن نعاون معاونة صحيحة على تأريث الأدب العربي في السودان ، وأن نسجل تطوّر الخواطر والأفكار في ذلك الشطر من وادي النيل ، النيل الذي فتن « إميل لودفيج » فزاره في منابعه ، ثم أنشأ فيه كتاباً خلق للسودان ملايين من الأصدقاء

كان أسلافنا أصدق منا يوم عبَدوا النيل ، وكنا عاقين حين اتهمناهم بالوثنية ، فما كان التعلق بمصادر الخيرات إلا فنا من الثناء على واهب الخيرات

لما هبطت أسعار الفرنك في فرنسا منذ بضع سنين هتف صوتٌ يقول : أيها الفرنسيون ، انتهزوا فرصة هبوط الفرنك وزوروا أقاليم وطنكم الجميل !

وأقول : إن الحرب قضت بأن تقفَل أبواب أوربا في وجوه المتشوفين إلى ما في أوربا من ملاعب الصيف ومراتع الشتاء ، فانتهزوا هذه الفرصة يا أبناء العرب وزوروا أقاليم وطنكم الجميل ، على شرط أن تذكروا السودان ، فهو اليوم أكبر قارئ للمؤلفات والجرائد والمجلات ، مع تفرده بالاغتراب ظلماً عن قافلة الوحدة العربية

وفي ختام هذه الكلمة أذكر بالثناء العاطر ما صنع طلبة كلية الآداب ، فقد تألفت منهم بعثة سنة ١٩٣٨ لزيارة السودان كما تألفت منهم قبل ذلك بعثات لزيارة العواصم العربية ، فصنيع كلية الآداب يشهد بأن فيها عقولاً تدرك أن وصل الأمم العربية بعضها ببعض غرضٌ يوجبه الصدق في إحياء الأدب العربي والتراث الإسلامي . وسيكون لكلية الآداب في توكيد هذه المعاني مقامٌ يسجله التاريخ بأحرف مسطورة فوق جبين الوفاء .

زكي مبارك

الإفصاح

المعجم العربي الفذ ، وهو خلاصة وافية للمخصص وغيره من المعجمات ، يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ، ويسعفك باللفظ للمعنى المراد ، يعين العلماء على وضع المصطلحات العربية في العلوم المختلفة ، ولا يستغني عنه مترجم ولا أديب ، ٨٠٠ صفحة تقريباً ، طبع دار الكتب ، أشرفت طبعته على النفاد ، ثمنه ٢٥ قرشاً يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الكبيرة ومن مؤلفيه :

حسين يوسف موسى — المدرس بالمدرسة السعيدية الثانوية بالجيزة

عبد الفتاح الصعيدي — رئيس التحرير بمجمع فؤاد الأول للغة العربية